ولادة الهوية من رحم الموت والذاكرة رواية كريماتوريوم لواسيني الأعرج أنموذجا

Identity from the womb of death and memory ،the novel Crematorium by Wasini Al-Araj ،as a model

حدة بن حفاف *

تاريخ الإرسال: 2022/12/28	تاريخ القبول: 2023/02/12	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

اهتمت روايةُ كريماتوريوم سوناتا لأشباح القدس كغيرهَا من الرّواياتِ الجزائريةِ بأسئلةِ الهويةِ وراحت تجيبُ عنها، فكانت إحدى الرّواياتِ الّتي تناولت صراعَ الهويةِ بين الأنا والآخر بعيدا عن ترابِ الوطنِ الحلم، وذلك حين يرمى الإنسانُ على حوافّ المبهمِ على أرضِ المنفى، معلّقا بين الرّجوعِ للوطنِ أو اللّارجوع، معلّقا في فراغٍ بين ماضٍ تستحيلُ العودةُ إليه، ومستقبلٍ مجرّدُ حلمٍ لا أكثر عندها تحاولُ الأنا الارتماءَ في أحضانِ الآخرِ والانسلاخَ من هُويّتِها والتّأقلمِ مع الواقعِ الجديدِ والاندماجِ في ثقافةِ الآخرِ والتّماهي فيها بعد رحلة التّوليف والتّأقلم فتبرز الشّخصية السّاردة في الرّواية (كفنّانة من الطّراز الرّاقي، تعبّر بلوحاتها الفنّية باللّون والرّيشة عن الوطن والهويّة المسلوبة والمفقودة في فراغ، لكنّ وطأة الواقع والذّاكرة تمنعان هذا الانسلاخ، فتلجأ السّاردة إلى الذّاكرة كمرجعية أساس لتشكيل هوية الأنا مقابل هوية الآخر.

من هنا كانت إشكالية المقال متمثّلة في سؤال الهُويّة التّالي: هل الهُوية هي الانتماءُ إلى زخم من ذكرياتِ التّاريخِ والوطنِ الّتي لم تعد تبدوا واضحة؟، أو شخصيات تراودُنا كأشباحٍ وأطيافٍ؟ أو الهُوية هي مسقطُ الرأسِ؟ أو بعضُ ما بقي من اللغّةِ المتعثّرةِ... إلخ؟ أم هي المنفى الاضطراري الّذي لم يستطع غلَق بابِ الماضي أمام الذاكرة؟

الكلمات المفتاحية: الهويّة، رحم، الولادة، الذّاكرة.

Abstract:

The novel Crematorium(ghosts of jerusalem) like other Algerian novels focused on answering questions about identity .one of those subjects it

*جامعة زيان عاشور الجلفة، chelalim30@gmail.com

undertook was straggle between me ،myself and the other (land of exile) ،away from the homeland where one finds himself thrown in an unknown land undecided between returning back home or no return at all ،hung in total emptiness between a past impossible to go back to ،and a future that is nothing but a dream This split ،strange ،broken ،and contradictory identity ،American ،and Palestinian.

The American identity wich does not get along whith her soul and a slit soul that isinconflicwith her identity ،the past imposes itself on the character ،becomes grand ،hung ،and filled with pain and sorrow ،and portrays negativity on the personalityof the character ،and makes her more haitfulti the past ،history ،and her lost and stolen identity from here comes the problematics question in this presentation is the identity the affiliation of the unclear past ،history ،and homeland?

Or people who haunt us like ghosts ،or it is the place of bith and memories?or what is left of her broken language ،or it is the mandatory exile which ca not close the

المؤلف المرسل: حدة بن حفاف chelalim30@gmail.com

*** *** ***

مقدمة:

حينما يرمى الإنسان على حواف المبهم و يهمّش في المنفى مسلوب الهوية مغتربا، تتكثّف الذّاكرة و تترصده لتقول له لا وجود لهوية مستعارة، ولا لهويّة مزدوجة فأنت تعيش رهين سجن الذّاكرة، حينها يخلق الخيال حلّا وهميا من أجل تحقيق الهوية الّتي غدت حلما صعب التّحقيق بل ومستحيلا متوهّما، فيخلق الحياة من رحم الموت،وينفخ الرّوح في رماد الموتى، معتمدا على الذّاكرة الّتي تحلّق بعيدا في سماء الماضي و تغذي هذا الحلم الوهم.

من هنا كانت إشكالية المقال متمثّلة في سؤال الهُويّة التّالي: هل الهُوية هي الانتماءُ إلى زخم من ذكرياتِ التّاريخِ والوطنِ الّتي لم تعد تبدوا واضحة؟، أو شخصيات تراودُنا كأشباحِ وأطيافِ؟ أو الهُوية هي مسقطُ الرأسِ؟ أو بعضُ ما بقي من اللغّةِ المتعثّرةِ ...إلخ؟ أم هي المنفى الاضطراري الّذي لم يستطع غلَق بابِ الماضي أمام الذاكرة؟

1.صراع الهوية بين الوطن والمنفى

حين يقتلع الإنسان من أرضه ليجد نفسه على الهامش، على أرض المنفى الّتي لا تعوّض أرضه، تنشطر الذّات بين هويّتين، هويّة تعبّر عن موروثها الأصل، وبين هوية على أرض المنفى استعارية تعيد بناء الذّات المحطّمة من جديد، تقول الخالة مامي دنيا لمي:" لا تخافي لن نشفى أبدا من مرض الأرض، الآن هذه أرض، فيها تعيشين وعليها تموتين، لا تلتفتي وراءك كثيرا وإلّا ستظلّين معلّقة في الهواء مثل أجراس الكنائس القديمة، كلّما سحبوا حبلا فيها، أنّت بقوّة لدرجة إيقاظ الموتى والأحياء معا[1] " فنجد مي تحكي بواسطة لوحاتها الزّيتية عن الاجتثاث والاقتلاع، لقدا ختارت فنّا يعبر القارات ولا رقابة مفروضة عليه وعبّرت عن هويتها بكلّ حرّية إنه فنّ الرّسم، فالذّاكرة بالمرصاد تنتظرها في أوّل محطّة ينهار فيها الجسد ويتعالى سلطان الرّوح فتصبّ ثقلها على فكرها، تقول مي لابنها يوبا في حوار عجائبي:" أتظنّ يا يوبا أنّنا نعذّب أنفسنا لأنّنا نشتهي فعلَ ذلك؟ كنت أتمنّى أن أنسى كلّ تلك الأشباح ولا أبقي من القدس إلّا الذّاكرة الّتي أشتهي أن أراها، ولكنّه طغيان الصّور الّتي لا سلطان لنا عليها، الذّاكرة الملعونة، تضعنا أمام جراحاتنا في الوقت الّذي تشاء[2] " ما يجعل مي تعيش تشظي هُوَوي قاتل؛ تقول: " أنا لست أنا، أنا بنت أخرى ...أنا لينا ماركو... وهذا بابا يونس ماركو... باباي ونس وليس حسن.... ظللت أردّد الأسماء نفسها وأحاول جاهدة أن أنسى اسمي الحقيقي نهائيا[3] " إنها رحلة التّوليف الّتي تمرّ بها مي، وهذه العبارة هي مفتاح الدّخول إلى أمريكا، المنفى الّذي أكسبها الهوية الأمريكية:" فالهوية العربية الّتي تأكل الطّعام الأمريكي، وتقيم في الفندق الأمريكي، وتحمل الشّهادة الأمريكية... هي – شئنا أو أبينا – هوية فقدت الكثير من اختلافها، هوية تعولمت إلى حدّ ما، وهذا يعني أنّها تشابهت مع غيرها[4] " لتصبح ذاتا بهوية مزدوجة) : هوية غربية أمريكية وهوية مشرقية فلسطينية أندلسية بربرية (تعيش مشطورة إلى قسمين في عالمين مختلفين: الجسد في المنفى والعقل والروح في مسقط الرّأس،ي تغذّيان على الذّكريات والثّقافة الأم)ذكريات الأمكنة والأشخاص واللّغة والتّاريخ. تقول مي: "ما جدوى العودة إلى أرض لا تعرفك ولا تعني لها أيَّ شيء، وتتركَ أرضا يتنفّسُ جلدُك تربتَها؟ أقول هذا الكلام وأنا ل أعرُف سرَّ هذا الحزنِ كلّما انتابتني أرضي الأولى مثَل المرضِ العضالِ والخوفِ الّذي لا نعرُف لهُ مصدرًا، مع أنّي قضيت حياتي كلّها في هذه المدينة في مقاومة هذه الفكرة الّتي

تتجشّأ بالأشباح[5] " أيضا " لم أكن أريد شيء سوى أن أذهب نحو الأرض الّتي شقّت جزءًا من ذاكرتي، ولم أكن أعرف السّبب بالضّبط: تساءلت في أعماقي: أبعد كلّ هذا الزّمن أتذكّركم؟ ما الّذي يقودني نحوهم"، تقول الخالة لمي في حوار دار بينهما: "لو كان لنا أوطان نملأ بها أفواهنا ماتركنا تربتنا وحياتنا الأخرى، بس يا الله، المكان يسمح لنا بأن نستفيد من هذا المنفى، هذه الأرض صارت أرضَنا كذلك، وستصبح أرضَك أنت أيضا، الزّمن يرتّب المستحيلات ويجعلها ممكنة[6]، هذا أفضل مثال عن هوية الآخر الّتي تتماهى فيها الأنا بعد رحلة التّوليف والتّأقلم، فشخصيات الرّواية تتحدّث عن تأقلمها مع الهوية الجديدة وتقبُّلِها كما يفعل السائق البُورتُوريكي الّذي يردّد دائمًا: "بلادي الأصلية تغيّرت كثيرا ولم تعد في حاجةإليّ، ولا إلى عائلتي، أولادي لايعرفون عنها الشّيء الكثير، ويبدو أنّه علينا أن نقبل بهذه المصائر الصّعبة والقلقة، وأن نحاول أن ننبُتَ بقوّة في الأرض الّتي نحن فيها وإلّا ضاع كلُّ شيء[7] " ص277، ثمّ هويّة الأنا الّتي لا تستطيع الانفصال عن الماضي ونسيانه، حيث تفرضها الذّاكرة هُويةً أصليةً لا تستطيعُ الشخصيةَ السّاردةَ التّنصّل والانفصالَ عنها، تقول مي"الغريُب في الأمر أنّنا كلّما كنّا بعيدين عن مكان الذّاكرةِ نتذكّر الأشياء دفعةً واحدةً[8] " فلا المنفى أنساها القدس ولا القدس انمحت من ذاكرتها، تقول مي ليوبا" حبّ من هذا النّوع قاس جدّا لم أعد قادرة على تحمّله لأنّه إذا لم يقتل، فهو يدمّر من الدّاخل، أنا مريضة بوالدي وهو مريض بي، وكلانا مريض بأرض سرقت من فراشه ...جاء بينحو مدينة لا أنا اخترتها ولا هو اشتهاها، أعرف جيّدا أنّه لو خيّر للحظة واحدة، لاختار أن يموت على تربة القدس على أن يعيش داخل هشاشة مفرِطَة اسمها نيويورك أو سياتل حاول العديد من المرّات أن يعود إلى القدس ولكنّه لم يستطع أبدا فقد مُنِع حتّى من التّفكير في ذلك[9] ".

الرّواية تصوّر بكلّ شفافية صراع الهُوية، حيث تظهر الشّخصية الرّئيسية مي من خلال الرّواية مبعثرةَ المشاعر، تائهةً لا هي استطاعت فتحَ الملفّاتِ القديمةِ للتّخلّص من شبح تاريخي لاحقها كما قال زوجها الكونراد سميث" K0NRAD SMITH" لن تعيشي حياتك بدون الانتهاء من حدادِ مدينَتِك وطفولتِك" ص" 463 على ظهرك دين الحداد مع طفولَتِك وعليك أن تعيشيه لكي تتخلّصي منه"[10]ولا هي استطاعت التّلذذ بالحاضر في المنفى وتبنّي الهوية الأمريكية كهوية بديلة تتجاوب معها بكلّ أحاسيسها تذكر مي: "المنافِي لا تقتلُ

الأشباحَ أبدًا، ولكن تمنحُها فرصةَ التّوالُدِ المجنون"[11]ت قول مي لزوجها كوني حين ذهبت معه إلى الأردن وأصبحت قريبة من حبيبتها فلسطين" تخيّل أنا الأمريكيةُ الفلسطينيةُ روحًا وقلبًا، لا حقَّ لي في الدخولِ وإذا دخلتُ سأذهبُ إلى أين؟ الزّمنُ تغيَّر، حاراتُنا رحلت ومن أذعَنَ للأمرِ الواقعِي تمنّى أن لا يُزعَجَ في راحَتِهِ، تخيّل امرأةً تأتيهُم وتتحدّثُ لهم عن فلسطين 48؟ من يصدّقُها؟ أيُّ أناسٍ سيتحدّثون إليها؟ أيُّ قّوةٍ وقتَها تستطيعُ أن تشدّها إلى الأرض الّتي تقف عليها. ألسنا في عمق لوحة عبثية وخرافية تماما[12]؟ إنّه الفراغ الهُووي، تكتشف مي أنّها ليست فلسطينية ولا أمريكية، إنها مأسورة في فراغ الهوية، مي ضائعة بين هويتين ووطنين، وطن حضنها وحاول مسح دموعها وإخفاء أوجاعها ومواساتها، فكان المنفى الّذي حمِل لها الكثير من المعاني: الموت والرّحيل الأبدي، ولعنة الذّاكرة الّتي تلاحقها إلى الأبد، وهذا ما يبيّنه حديث السّائق البورتوريكي لمي حين قال: "بلادي الأصلية تغيّرت كثيرا ولم تعد في حاجة إلي، ولا إلى عائلتي . أولادي لا يعرفون عنها الشّيء الكثير ويبدو أنّه علينا أن نقبل بهذه المصائر الصّعبة والقلقة . وأن نحاول أن ننبت بقوّة في الأرض الّتي نحن فيها وإلّا ضاع كلّ شيء " ثمّ تقول مي: "شيء واحد بقي فيّ من هذه البدايات، هو أنّي كنت مثل السّائق البورتوريكي، أريد أن أنجح في المكان الّذي نبَتُّ فيه[13] " وظلّت تتعارك فيه مع أشباحها الّتي حملتها معها من القدس، أو حمّلتها القدس إياها، فأحسّت فيه بالاغتراب والضّياع والنّفي رغم أنّه وطني رحّب بكل ضيوفه ولا يضيق بهم يقول بابا حسن" نيويورك.... مدينة كبيرة لا تضيق..... كل ناسها جايين من برا وما فيها حدا بيزاود على الثّاني، مدينة كبيرة وطيّبة وناسها كرماء، استقبلت أناسا كثيرون.... عبر تاريخها الحديث .....لسنا أوّل من يهاجر إلى نيويورك[14]"، ووطن ظلّ ساكنا فيها متخفّيا متنكّرا في دواخلن فسها" أتمنّى أن أرحل ولو بروحي، وآخذَ حفنة من تراب القدس وأشمّهَا، ثمّ أزربعَها على الفراش، وأتوسّدَها كأيّ درويش مأخوذ بسحر المبهم"[15] " وطن حاولت نسيانه والانشغال عنه" نظنّ أنّنا صنعنا مقابر لأشواقنا ولكننا نفاجأ أنّ ما تخيّلناه مقابر لم يكن إلّا محطّات للراحة، إذ تعود أشياؤُنا الدّفينة دفعة واحدة[16]"، لكنّها تجد نفسها تحتضنه وتتراكم رمادا حتّى تذرّ على تربته فتكتب بذلك لنفسها حياة جديدة وخلودا في فضائه، فرغم رحابة نيويورك إلّا أنّ مي كانت تعيش حالة منا لاغتراب والابتعاد، كانت تعيش على الهامش، ظلّت تعيش في القدس بأفكارها وروحها وفي نيويورك بجسدها ولا يبارحها هذا الإحساس

أبدا، تقول مي:"أشعر أحيانا بأنّي مطالبة باسترجاع أرض سرق منها اللّون قبل أن تسرق تربتها، متشظّية في الأعماق بين أوطان متعدّدة، وطن كان اسمه فلسطين، فأستعير لهب القوّة اسما آخر لا علاقة له بوجداني ووطن ثان منحني القدرة على الحياة والحرّية، اسمه أمريكا[17] " أي أنّها تعاني من قلق هُووي بين هوية مشرقية عربية فلسطينية وهوية غربية أمريكية فنجدها تستعيد ذكرياتها للمكان الأوّل في زمن طفولتها الّذي سرق منها، يوم وطئت قدماها المنفى وأخذ منها: الهويّة والوطن، الأم، الأخ، الأخت، الأهل، الجيران، الحبيب... فباتت تتألّم لمصير معلّق بين الرّجوع للوطن أو اللّارجوع، والتّأرجح بين الماضي والحاضر، بين المنفى والوطن، تقول مي بعد أن وطِئَها الفقد وآلمها الشّوق: "أشتاق لطفولتي وأصدقائي وحدائقي الجميلة ولكنّ الزّمن الّذي سرِق الأرض لم يمنحنا حتّى إمكانية الحلم[18]. وعلى سرير المرض تتحرّك أناملُ مي فتبدعُ في رسم" لوحة سباعية أطلقت عليها اسم حداد الذّئاب عبارة عن عمل تركيبي معقّد، كرّاسة مفتوحة بألوان قُزَحية تحمل وجوه العائلة ومدينة القدس " قمت على السّاعة الخامسة وبشوقُ كبيرُ لكلّ ماي ربطني بطفولتي، عبَّرت كلُّ ما لديّ من صور قديمة عنّي وعن القدس وعن الأهل.... انتهيت بسرعة من رسم مخطّط أوّلي لسباعية حداد الذّئاب الّتي كنت أريدها أن تقول كلّ آلامي الخفيّة[19]" إنّ اختيار واسيني الفن التشكيلي لبطلة روايته لم يكن أمرا عبَثِيا:"إنّ الماضي التّاريخي، ملامح الآباء والأجداد وأرض الأسلاف، واللّغة الأم، والمعتقدات والتّقاليد القومية والمفاخر الوطنية والقدرات الدينية، والعصبية القومية والفنون والآداب المتوارثة تشكّل بمجموعها الهوية الثّقافية للمجتمع"[20] فقد اختار من الفنون ما لا رقابة عليه والألصق بالمشاعر وأصدقها فالفنّان التّشكيلي يعبّر عن قضايا مجتمعه ومشاعره وأحاسيسه عبر لوحاته التّشكيلية بكلّ حرّية، فنرى مي تعبّرُ عن قضيّة الهوية بالرّسم، فتُبطِّنُ لوحاتها نقدا لاذعا للظلم والبطش الّذي مورس على الشّعب الفلسطيني وتجعله حاملا للقضية الفلسطينية من خلال ما يحمله من رمز ولغة سيكولوجية إيحائية من أجل إثبات الذّات والهوية فتحمّل اللّوحات قصّة طفولتِها في القدس وذكرياتِها في المنفى نيويورك وحبّ حياتِها يوسف وبابا حسن والخالات وماما دنيا ويوبا والكونراد تنقش حزنَها وغربتَها ونفيَها وآلامَها وخيباتِها وصدماتِها على لوحاتها الزّيتية فقد حمِلت لوحاتُها الفنيةُ كلَّ مقوّمات الهويةِ الفلسطينية" :إنّ المنفى يحمل في طيّاته الشوق الحارق للهوية الفلسطينية ويفتح

الجراح القديمة": لم أكن أدري أبدا أنّني سأحمل جرحا قاسيا طوال عمري، لم يمنحني أيّة لحظة للعيش وسيظلّ يُنغِّص عليّ حتّى السّعادة الطّارئة، لم يكن من حقّي أن أخرج عن المألوف وأفرح قليلا مادامت روح أمّي في ضياع كبير تبحث باستماتة عن جلّادها[21] " المنفى يكتب لنا موتا محتّما بعيدا عن نسيم الوطن، يحمل اغتراب الذّات بعد فقد وسلب الهوية ثمّ إنّ هذا الانتماء النّفسي للوطن جعل مي مشتّتة تعيش الماضي في الحاضر بكلّ شهيّة وترى الحاضر يفتقد لذّة الماضي حتّى الأمكنة تبدو جافّة باردة .

يعلن عنوان الرواية عن موضوع الهوية منذ البداية ويمدّنا بصورة وإطلالة استشرافية عن موضوع الرواية المتمثّل في البحث عن الهويّة الضائعة والمسلوبة الهوية المفقودة في فراغ) كريماتوريوم – سوناتا لأشباح القدس (عنوان مزدوج كما الهُوية مزدوجة في هذه الرّواية، فكريماتوريوم تعني المحرقة وهو يرمز إلى إمكانية الرجوع المتوهمة للفلسطيني الّذي رمي على حواف المبهم وهُمّش، فخَلَق من الخيال ما يداوي به جراحة ويحقّق به هويته، بالهروب من الجغرافيا الحقيقية المؤلمة إلى الجغرافيا الخيالية وإعادة البعث من الرّماد تقول مي " أن أمنح جسدي للمِحرقة لأرتاح نهائيا من شطط ثقيل لم أعد قادرة على تحمّله.... أشتهي فقط أن يبعثر رمادي على مياه نهر الأردن، ربّما وجد طريقه نحو جذور هذه الأرض وفي أحياء القدس العريقة الّتي جنت طفولتي وعلى قبر أمّي وأخي وأخوالي ويوسف إذا ما صدقت أخبار موته"[22] أمّا" سوناتا لأشباح القدس "فالسوناتا هي موسيقى روحية تفسر تعالقات الذّات الإنسانية مع الهموم البشرية، لا يفهمها إلّا من يستقطب الرّوح النَّغمُ القدسيّ الّذي لم يستقم ويكتمل إلّا بعد تزاوجه مع الذّاكرة ذاكرة أشباح القدس حيث بنت السّوناتا نغماتها على أحزان وجراح الماضي ولم تكن لتستقم ليوبا الّذي اختاره واسيني موسيقيا قصدا ليصل إلى عمق الذّات البشرية إلّا بعد أن ملأ كلّ الثّغرات الّتي تركتها مي وخاض غمار المجهول الّذي أرعب أمّيوماما، إنّه الماضي عالم الذّكريات الّذي يحمل لُغما مخيفا استطاع يوبا أن يخوض المغامرة ويكشف عن هذه الأشباح بمعرفة أسرارها ما سمح له بالعثور على النَغم الضّائع، كلّما عاش زوبعة التّذكّر فكانت السّوناتا القطعة الموسيقيةالقدسية الّتي أرهقت وأرّقت يوبا ابن مي الشّخصية الرّئيسية المحمّلة بأعباء الماضي وبهويّة ممزّقة يتجاذبها الشّرق والغرب وتنتصر للشّرق في النّهاية، فتحمل الشّوق الحارق والحنين المأجّج للوطن والأم المفقودة " القدس" فلسطين "

وبواسطة السّوناتا عبّر يوبا الموسيقي عن مي عن حزنه العميق لفقدان الأم ... والوطن عن الهويّة النّاقصة وما كان يراه من فراشات ملوّنة على لوحات مي فحمّل سوناتاه كلّ ماحمِله قلبه وقلب أمّه، فراشات القدس الضّائعة والغائبة، فالقدس تمثّل تاريخ مي المفقود، تاريخ الذّاكرة الفلسطينية، الأشباح الّتي سكنتها، فمي لم تتنصّل من القدس وأهلها وباتت تطاردها وتلاحقها أشباحها، فالعنوان يدلّ على مضمون المتن الرّوائي منذ البداية، كما نجد واسيني الأعرج قدّم بطاقة فنّية لمي:"مي فنّانة فلسطينية غادرت أرضها الأولى سنة 1948 وعمرها ثماني سنواتى،في ظرف قاهر، باسم غير اسمها وبهويّة مزوّرة، باتجاه العالم الحر، بحثا عن عالم أكثر رحمة وحبّا، في نيويورك، تفرض نفسها كفنّانة تشكيلية أمريكية من الطّراز العالي، عندما يباغتها سرطان الرّئة، تستيقظ فيها تربتها الأولى وأشباحها الخفية، فتتمنى أن تعود إلى القدس، لون طفولتها المسروقة، لتموت هناك. ولكن هل يمكن أن تعود إلى الأرض نفسِها بعد نصف قرن من الغياب "غلاف الرّواية"[23].

إنّ العنوان كعتبة نصّية قائمة بذاتها، يشكّل نصّا موازيا حسب تعبير جرار جينيت "فهو لا يقلّ أهمية عن النّص نفسِه باعتباره ملفوظا مختزلاي مارس الهويّة عبر التّكثيف، الإيجاز والتّرميز والتّلخيص، والّذي قد يشكّل حضورا أوّليا أو يمارس غيابا يستوجب حضور النّصفيه[24].

فالعنوان نهج دلالي يوجه القارئ، للتّطلّع على كل الاحتمالات، ومفتاح إجرائي يحيل إلى النّص بكلّ تشعّباته وتوجّهاته إلى سؤال الهوية المطروح في النص" فيمدّنا بمجموعة من المعاني الّتي تساعدنا في فكّ رموز النّص وتسهيل مأمورية الدّخول في أغواره وتشعّباته الوعِرة[25]"، باعتباره-أي النّص -بنية مكثّفة ومختزلة لبنائية الحكاية يدشّنه ويعمل كأداة وصل وتعديل القراءة.

2.العلاقة بين الذّاكرة والهوية: تداعيات الذّاكرة وترسيخ الهوية: ذاكرة المكان/ ذاكرة الزّمان / ذاكرة اللّغة

الذّاكرة شرط أساس لبناء الهوية، فاسترجاع الذّكريات يغذّي الهوية، يقول إيزاك تشيفا: "الذّاكرة هي القاعدة الأوّلية الّتي تغذّي الهوية، سواء علىا لمستوى الفردي أو على المستوى الجماعي، فتشغيل الذّاكرة هو إنعاش وبناء لهويّة الذّات"[26].

من هنا كانت رواية سوناتا تقف في وجها لتاريخ الماسح لثقافة الشعوب، فهي رواية الذّاكرة، رواية شعب فلسطين يرمي على حواف المهم في المنفى مسلوب الهوية مغتربا، حرم من أرضه حيا وميتا، رواية القدس الّتي لم يمح نصف قرن من الاغتراب والنّفي ذاكرتها، تقول مي: "الغريب في الأمر أنّنا كلّما كنّا بعيدين عن مكان الذّاكرة، نتذكّر الأشياء دفعة واحدة[27] " رواية تنادي شخصياتها وتقول: لا فائدة من التّغيير في الخارج ونحن سجناء في ذاكرتنا، لا وجود لهوية مستعارة للمنفيّ نحن نعيش في سجن الذّاكرة" في أوضاع الخيبة المدقعة، كيف يمكن أن يقاوم الإنسان رغبة الالتفات إلى الوراء"[28] نحن لا نزال نتشبّث بهويّتنا الأم، ونكتب لها الاستمرارية باستحضار الماضي، فنحقّق ذاتنا وهويتنا حين نشرع بالتّذكر، فذاكرتنا كوّنتها أحداث الماضي وقساوتها، وأحداث الحاضر من ألم النّفي والتّغيير ومرارته، ومستقبل يلوّح بالضّياع والتشظرم والانقسام والطّمس للهوية، وردّ الاعتبار للذّاكرة بناء للهوية، فهوية الإنسان تتشكل بسبب ارتباطها بالذّكريات، إن مي تنظر لذاكرة الماضي كمستقبل، ثمّ إنّ هذه الذّاكرة تمثّل وعيها، مي تبني هويتها في المنفى على أسس غير مصرّح بها خاضعة للذّاكرة، فتعيد الذّاكرة عن طريق الرّسم والموسيقى والكتابة في الرّواية بناء الهوية، تقول مي وهي في مستشفى نيويورك علي فراش المرض: " لكلّ شخص أشباحه الّتي يظنّها ماتت منذ زمن بعيد، لكنّه يفاجأ بها تشرب معه قهوته الأخيرة أو تتنفس هواء البحر في شرفته نفسِها عندما يصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت. تستيقظ كلّها دفعة واحدة وتقف على رأسه مطالبة إياه بمعرفة أسرارها الّتي ظلّت حبيسة لديه . التّاريخ مثل الثعلب الماكر يصمت زمنا ولكنّه سرعان ما يدركنا عندما نتعب من حِمل الحياة الّذي يثقل ظهورنا ولن نتخلّص منه مهما حاولنا الانفلات .أقوى من كلّ شهواتنا وإرادتنا"[29] تعدّ الذّاكرة بالنّسبة لشخصيات الرّواية المادّة الخام الّتي تكسبها الشّعور بالأنا والهوية ومفتاح وعيهم وصانعة وجودهم فتسعى مي لتثبيّت ذكرياتها بالحرف على كراستها النّيلية فالكتابة وسيلة للتّداوي من جراح الماضي وخيبات الحاضر السّجين فيه، رسالة للأجيال اللّاحقة والخيط الرّابطب ين الماضي والمستقبل فهي تمثّل اللّحظة الرّاهنة الّتي تصوّر الماضي وتحاكيه لترسم معالم المستقبل الحلم وبها تحقّق وجودها ووعيها وبالرّيشة تحفظ ذكرياتها وتاريخها من الاندثار والضياع والنّسيان على لوحاتها الزّيتية: "كنت أريد أن أقول ليوبا ما كان في قلبي من حزن وانكسار ولذّة غريبة عندما

ينتابني شعور ما بأنّي أعيد بناء كسوراتي كلّها بالألوان الّتي لا تموت أبدا"[30] ص282 ، فهوية مي وليدة الذّاكرة، تثبّتها وتحقّقها بالفن". يسهم الماضي بإعداد الهوية الفردية أو الجماعية، كما يسهم بتأصيل قيمنا ومثلنا العليا ومبادئنا."

تتكئ مي في المنفى على التّاريخ والذّاكرة فهما بمثابة سجلّ يحمل الأحداث والوقائع والماضي ويحدّد الهوية" يشكّل تاريخ الجماعة منطلقا لتحديد هويتها إذ تتجذّر هوية الجماعة من تاريخها[31]" فتستعيد المكان الأوّل، مسقط الرّأس ومنبت الطفولة المسلوبة "أشتاق لطفولتي وأصدقائي وحدائقي الجميلة، ولكن الزّمن الّذي سرِق منّا أرضنا لم يمنحنا حتّى إمكانية الحلم"[32].

إنّنا أمام رواية الذّاكرة بامتياز تقول مي: "تتحوّل الذّاكرة إلى محفظة صغيرة مثل تلك الّتي كنت أحملها معي كلّما توغّلت داخلها، أسعفتني في إيجاد ما أبحث عنه، كانت مخزني، ومخبأ أسراري[33] "تعتمد الشّخصيات السّاردة على الاستذكار تقول مي، "قراري بالشّروع في كتابة مذكّراتي الموشومة بالرّماد والألوان والكثير من الخوف، بكلّ الصّدق الّذي يملأني. ربّما استطعت أن أتخلّص من أنيني العميق، إن أسعفني الموت الّذي يترصّدني باشتهاء، الكتابة تفتح كلّ الجراحات المغلقة وتدفع بعواصف الدّم الجارف نحوا لخروج للمرة الأخيرة[34] "متّبعة في ذلك أسلوب المذكّرات، فالنّص الرّوائي فيه خرق للمألوف وللتّقاليد والنّمطية بشكل ملفت للنّظر، حيثي توجّه واسيني للذّاكرة لكي يستنطقها، فتظهر براعة واسيني الأعرج في إثارة سؤال الهويّة، من خلال شدّ الانتباه إلى قضية الهويّة والوطن المفقود الضّائع، من خلال الاستذكار أو ما يسمى بسيطرة الذّكريات على الحاضر، تخترع مي طريقة لحفظ الذّكريات، حيث تعتمد الكتابة على كراستها النّيلية الّتي صمدت لأكثر من نصف قرن ومازالت تحمل رائحة القدس ′ كما تعتمد مي الفن لمواجهة محرقة الهويّة الّتي تسعى لمحو الذّاكرة والإنسان والأرض وتغييب الهوية، فتظهر مي الشّخصية السّاردة في الرّواية متعطّشة لهواء تربتها ووطنها الضّائع، فتعبّر في مذكّراتها ولوحاتها عن الفقدب مختلف أنواعه: فقد الأم والأهل والحبيب والوطن، والهويّة .... إلخ:" عليّ أن أتذكّر التّاريخ الّذ يسرِق طفولتي في ذلك اليوم الغريب الّذي خرجت فيه لأنقذ والدي بدون أن أودّع أمّي[35]، أيضا تقول مي: "المنافي لا تقتل الأشباح أبدا ولكن تمنحها

فرصة التوالد المجنون لدرجة أنّها في لحظة من لحظات حياتنا تشدّد علينا الخناق وتهدّدنا."[36]

ذاكرة المكان: ترقص الذاكرة بين القدس ونيويورك، وتعتبر القدس ذاكرة الشّعب الفلسطيني بشوارعها وأزقتها وفراشاتها وألوانها وأسواقها وأفرانها، قناديلُ الذّاكرة، دون أن يمحو الزمن تفاصيلها الدّقيقة، علاقة تاريخية وجدانية بين مي والقدس تحمل في طياتها قضية الهوية الفلسطينية المسلوبة تقول مي وهي تطل من نافذة المستشفى على شوارع نيويورك: "لم أكن أرى نيويورك، ولكني منغمسة في أحياء القدس القديمة الّتي كانت تنزلق من بين أصابعي المرتعشة مثل الرّمل الجاف، ولم أكن قادرة على لملمة أجزائها الطّائرة، كان يأتيني واضحا صوت عمّي أبو نجيب وهو يمدح فلافله وساندويتشاته الّتي يملأها بها: يا فلافل طعما لغني والفقير، الصغير والكبير. كنت آكل منها بنهم وتلذّذ كبيرين ما يزال مذاقها على رأس لساني إلى اليوم..... كلّم اتذكرتها يصيبني دوّار ...لقد سرِق الموت أبو نجيب، مثلما سرَق حجارة القدس وأسماء شوارعها القديمة[37].

أيضا تقول مي وهي على فراش المرض في مستشفى نيويورك المركزي بعد أن سمَحت لخيالها بالسفر إلى زمن الطفولة في القدس وتركت الذّاكرة ترمّم هويّتها: "كان اللّيل قد حلّ عندما انتابتني حالة القنوط القصوى، وحيدة بمستشفى نيويورك المركزي ...فتحت نافذة غرفتي وبدأت أتأمّل السّاحة والطّرقات الّتي امتلأت فجأة بأوراق البلاطان الصّفراء، حساسيتي تجاه الأوراق كبيرة، كلّما تأمّلتها زادت رهافتي، ربّما لأنّ أوّل شكل رسمته بدقّة في حياتي في القدس كان هو ورقةا لبلاطان الّتي أتذكّر جيّدا أنّي لوّنتها باللّون الآجوري القريب من لون القدس وحيطانها وتربتها..... كنت أميل إلى الهروب نحو المبهم لكي لا تُكتشف حماقاتي الخفيّة، بدأت أسكن الألوان لكي أقول ما أشتهي قوله بدون أن أضطرّ إلى التّبرير.... سأكتب بعيني، وإذا لم أستطع فبقلبي، وإذا فشِلت سأكتفي باستعادة ذاكرتي وأكتب بكلّ حواسي الّتي لا تموت أبدا[38]" إنها الذّاكرة ترسم ملامح الهوية وتطارد دخانها.

ذاكرةالزّمان: جسّد الزمن في رواية سوناتا الفقد فقد الوطن الأرض، الهوية ذوبان الذّات وتواصلها مع الماضي سواء كان هذا الماضي بعيدا كماضي العرب المفقود في الأندلس

وذكراهم الحضارية فقد عادت مي إلى تذكّر تاريخ الأندلس المفقود، سقوط غرناطة إلى تذكّرها بجدّها سيدي بومدين المغيث الأندلسي، أو الماضي القريب للعرب في فلسطين وأحداث 1948 القاسية والصّعبة على الشعب الفلسطيني " إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين" لما قرّرت بريطانيا الانسحاب من فلسطين وموافقة هيئة الأمم المتّحدة على تسليم فلسطين لليهود الصّهاينة ليقيموا دولتهم على أرض الفلسطينيين، وتهجير الفلسطينيين إلى مختلف أنحاء العالم، فكانت الاستذكارات طاغية في الرواية من خلال تداعي الزمن الماضي تعويضا للهوية المفقودة، خاصة مرحلة الطّفولة الّتي توقّفت عندها ذاكرة مي مطوّلا لأنها المرحلة الّتي تمّ فيها سلب الهوية، ويزداد امتداد الحاضر في الماضي كلّما زاد رفض مي للواقع، وكلّما أحسّت بالهوّة بين الهوية الغربية الأمريكية المستعارة الّتي لا تمثلها أصلا، وبين الهوية الّتي تشتاق وتحنّ إليها هويتها الأصل المشرقية الفلسطينية الأندلسية البربرية، يضيق الحاضر رغم رحابة نيويورك ما جعل مي تعيش ارتباطا روحيا بالوطن، وتغيّب الحاضر تحت وطأة وحضور الماضي الّذي حاصر الحاضر، وجعلها تفقد طعم الاستمتاع بجمال المكان وتذوّق المساواة في بلد يؤمن بالحرّية نيويورك، إنّ الحاضر لم يورّث مي سوى المرض والخسارة والهزيمة والسّلب الهووي و ..... إلخ، لذا تعود مي بذاكرتها إلى التّاريخ البعيد الّذي يمتد إلى قرون بعيدة، إلى تاريخها الأندلسي البربري، تستحضر هذا التاريخ فتحرك أوجاعها، وتمدّ يدها إلى أحداث 48 التهجير القسري للفلسطينيين إلى منافي العالم، جرح عميق تحاول أن تداويه بالاستذكار والكفاح من أجلت رسيخه بالكتابة والرّسم، تعتبر الذّاكرة ملجأ السّاردة الوحيد لأنّها تجد في الماضي ما يخفّف ألم الحاضر وغربته وما سبّبه من تمزّق وضياع وقلق هووي.

ذاكرةاللّغة: تعدّ اللغة من المكوّنات الأساسية للهوية، لما لها من دور كبير في تحديد هوية الجماعات، فاللغة ترجمة للهوية إنّ اللغة حاملة للهوية وقيم التّاريخ، تعزّز اللغة هوية الجماعات، وتدعم إحساسهم بروح الانتماء إلى وطنهم " اللغة منظور إليها من زاوية الهوية ليست مجرّد أداة تواصلية محايدة وسلبية، بل هي كائن إيجابي وفاعل في إعادة إنتاج ذات الهوية، وتطويرها، أو - على العكس من ذلك – تدهورها وتحلّلها[39]."

تستعير مي لغة المنفى لتسمية لوحاتها الّتي تحمل في طياتها هويةموازية تواجه بها قسوة المنفى، فنراها تسميها) حداد الذّئاب /Berevement wolves وتسميةالمطعم Chez

Magda & Sara oriental Fast food،أكل سريع عن ماجة وسارة، ومامي Mami التّي أطلقتها على الخالة دنيا، أيضا معرض مي) سلطان الحياة(Life power) كما تتمرّد على المنفى بترديدها لبعض الأغاني القديمة الّتي تسعفها بها الذّاكرة، تتذّكر أغنية جدّها سيدي بومدين المغيث:

"ليام تمرض وتبرا،والصبر هو دواها...

آه... يا أسفي على مامضى.

منذاك الزمان اللي فاتوا نقضى.....

آه يا فرقة الدّيار، ديار الأندلس،

ما هانوا عليا ماهانوا عليا " [40]

أيضا:

"مانيشمنا... مانيشمنا

غير المان وصابني"..."[41]

هذه الأغاني الّتي ترسلها ذاكرة مي إصرار على هويتها وانتمائها فهي تنشر وتوزّع رائحة الشوق والحنين للقدس والأهل والحبيب...، كما تمثّل تمرّدا على الهويّة المستعارة، وعلى اللغة المستعارة الّتي لا تستعين بها المخيّلة حين الشوق، فالذّكريات تلائمها اللّغة الأم اللّغة الّتي تحمل الذّكريات اللّغة الّتي تستحضر الرائحة واللون والطّعم والمشاعر ....وتطير بك متجاوزة المكان والزّمان، فاللغة هي وجه الهوية الحقيقي. .

4. ضياع الذّات بين الاغتراب والانتماء

الاغتراب هو أن يعاني الإنسان من اضطراب في علاقته بنفسه، ويحسّ أنّه غريب عن ذاته، وأيضا عن العالم، جرّاء الفقدان، أو هو حالة من الانفصال بين الفرد والمجتمع، تجعله غريبا وبعيدا عن واقعه الاجتماعي وتمنعه وتجعله عاجزا عن الانسجام مع النّاس، فهو بمثابة الصّراع الدّاخلي لدى الفرد بينه وبين المحيط الّذي يعيش فيه، ممّا يجعله يعيش حالة اللّاانتماء، ويفقده الحسّ والوعي، إنّه اضطراب نفسي يعبّر عن اغتراب الذّات

عن هويتها، وبعدها عن الواقع وانفصالها عن المجتمع، وهوغربةعنالنّفس، وغربةعن العالم، وغربة عن الشّعب فالاغتراب هو أن يضيّع الإنسان شخصيته الأولى، وأن يغترب عن طبيعته الجوهرية، وهو عدم الرّضا ورفض الواقع، ويبدو أنّ مي كانت تعيش هذا النّوع من الاغتراب لأنها الفلسطينية الّتي عاشت على أرض المنفى أمريكا تملك سكنا خاصّا، فنانة تشكيلية من الطّراز العالي، ترتاد على البار، تدخّن سجارتها، وترقص على الجاز، تحتسي الخمرة وتتجاوز الكأس الثّانية مع زوجها الإيطالي الأمريكي، وتنقر على الكأس، لكنّه اتحمل في رأسها أفكارا لا تستطيع التّنازل عنها، وتقرّر مصيرها بموجبها، وتحسّ أنّها غريبة عن هذا المجتمع الأمريكي، رغم أنها تحمل الجنسية الأمريكية أدخلني كوني بسرعة في عالم الجاز الّذي كان يذهله ويشعر بعمق الأشياء فيه. كلّما عاد من سفرة من سفراته قبل أني دخل إلى البيت يعطيني موعدا في باره المفضّل في منهاتن أو في مطعمه في سوهو، هناك نلتقي نشرب ونرقص حتّى لآخر اللّيل نترك بعدها مهلة لبعض الجنون الّذي لا يَخفَق إلّا للأشياء المدهشة هو من علّمني التّدخين وتجاوز كأس الويسكي الثّانية فقد ربطني بمثل فرنسي حفظه عن ظهر قلب من أحدأ صدقائهjamais" deux sans trois" وعندما أنتقل إلى الكأس الثّالثة يصبح من الصّعب عليّ العدّ بعد ذلك كان دائما يشعل سجارتين واحدة له وواحدة لي، كان يتركها تحترق لوحدها حتّى تنتهي مع الزّمن عشقت عاداته، وبدل أن أترك السّجارة تذوب في فراغ صرت أشاركه في التّدخين، علّمني كيف أنقر الكأسين، وعلّمته بعد النّقر كيف يسرق من كأسي رشفة وكيف أسرق من كأسه رشفة، ثمّ فجأة صار كلُّ شيء رقيقا وخفيفا وناعما إلى أقصى الدّرجات ما زلت أتذكّر عبثيته السّاخرة ووشوشاتِه الجميلة في الفراش الدّافئ ."[42]

إذن فالاغتراب هو الشّعور الّذي يصاحب الفرد حينما يغادر مسقط رأسه وموطنه إلى مكان آخر، ويكون قاسيا حينما يكون الاغتراب مفروضا عليه اضطراريا كما حدث مع الفلسطيني الّذي نفي إلى العالم الآخر.

تظهر الشّخصية الرّئيسية مي من خلال الرّواية ضائعة بين هويتين ووطنين أحدهما احتضنها وحاول مسح دموعها وإخفاء أوجاعها ومواساتها وآخر ظلّ ساكنا فيها، فأصبح يمثّل زمانها ومكانها وتاريخها، لم تستطع مي ولا شخصيات الرّواية نسيان ما حدث معهم من تهجير قسري من أجل إخلاء المدينه للهود فنكّلوا بالفلسطينيين، ودفعوهم

لهجر وطنهم الّذي ظلّ شوقهم إليه مستعرا ومشتعلا في صدورهم، ومي هي الأمّ الّتي تلد جيلا جديدا يحمل على عاتقه القضية الفلسطينة، ويستمر في رفض هذا الواقع المرير، وليس يوبا إلّا واحدا من أبناء هذا الجيل، قلق هووي تعانيه مي في المنفى، فهي الّتي تحمل الجنسية الأمريكية إلّا أنّها تحسب الاغتراب لكونها ذات أصل عربي، لكونها تنتمي إلى فلسطين بلد المولد، تقول مي في وصيتها: "ما يزال في الروح يا جدي، شيء اسمه الأرض الأولى . عدت إليك لأنّي وقعت بين هلاكين، لا استطعت العودة نحوك وتنفّس تربتك والموت في حضنك، ولاتمكّنت من نسيانك والالتفات نحو مقابر الأراضي الّتى احتضنتني[43] حالة من اغتراب الذات وضياعها بين زمنين وموطنين يتنازعانها،أحدهما يحتضن الجسد والآخر يحتضن الرّوح، فلا تزال مي تعيش الماضي وأحداث 48 بعد مرور نصف قرن تقريبا على هذا التاريخ وتجتره وكأنّه حدث قريب.

الاغتراب المكاني: هو إحساس الشخص بحاجته لوطنه الذّي ولد فيه، تواجه مي ذاتها محاولة إقناعها أنّ الأرض التي تمثلها هي أمريكا وأنّ نيويورك هي هويتها، حيث تمثل هذه الأخيرة واقعه بعد خروجها من القدس، إلا أنّ نيويورك لم تكن إلّا وجها آخر للقضية الفلسطينية، زاوية تطل من خلالها مي على القدس" توغّل بصري بعيدا في عمق شوارع نيويورك المحيطة بالمستشفى الّتي بدأت أمسحها واحدا واحدا . شارع ليكسينيغنتون بامتداده الكبير حيثي توازى بانتظام مع الشّارع الثالث ثمّ الطّريق 35 الّتي يتقاطع معها، بدت القدس بكل آلامها ووحداتها . والغريب أنّ القدس تنتابني لأوّل مرّة بهذا الشّكل الحزين المليء بالصّرخات الّتي كانت تأتي من الجوانب الخلفية للمدينة القديمة. تلك المدينة المخبّأة فيّ. شيئا فشيئا بدأت أتوغّل في عمق العيون الغاضبة[44] "تقول مي ليوبا حينما أحسّت منه ميلا لهويته الأصل " ربما كنت أنا كذلك أمّا أنانية أريدك لي فقط ولهذه الأرض الّتي كبُرت فيها، ونسيت أنّك رجل يستطيع أن يختار مساراته، لم أكن أريدك أن تهزم هويتك بهويات مليئة بالأشباح والحرائق والأشواق الدّفينة ولكن يبدو أنّ المشكلة أكثر من رغبتي البسيطة . أعذرني ربما كنت ساذَجَة ولكنّي كنت صادقة في إبعادك عن كلّ ما يهزّ يقينك بالمكان الّذي منحك الحياة والحب والفن والحرية[45] "فمي روحيات عيش في القدس، وتحاول منع يوبا من أني عيش في موطن غير الّذي ولد فيه لكن في الأخير ينتصر يوبا للقدس وهو الأمريكي مولدا والمشرقي تاريخا.

تعيش روح مي في القدس وجسدها في أمريكا، ويبقى حنينها للوطن ينغّص عليها حاضرها، محفورا في ذاكرتها، يمنعها من نسيان الذكريات، رائحة الوطن تنتشر في شوارع نيويورك، فالوطن موجود أين وجدت، والمنفى لم يعد إلّا مسرحا وفضاء تحيا فيه القدس لا تستطيع مي الانفصال عن المكان منذ الوهلة الأولى فنجدها تصور تشبّثها بمكانها الأول تارة بالحرف في مذكراتها وتارة بالريشة واللون تقول مي حين تطلب من يوبا أن يحضر لها الكراسة النّيلية " كتبت كلاما كثيرا طوال الرّحلة، ورسمت البحر والطيور الّتي كنت أراها وكأنّها تطير بالشّكل المعاكس من نافذة الباخرة، وحسدتها لأنّها كانت تعود إلى أرض كنت أنا أغادرها، تمنيت أن أكون طيرا فقط[46] "فبالرّسم عبّرت عن حلم عودتها وبالكتابة وثّقت ذلك.

4. الموت وحلم العودة والبعث للوطن من جديد (ولادة الحياةمن رحم الموت)

تحاول مي إعادة بناء الهويّة، واستعاده الهوية عن طريق الحلم " حلم من العبثية الحزينة فالفرد يحلم أن يكون نفسَه عندما لا يملك أن يفعل ما هو أفضل من ذلك، إنّه يحلم بالذّات عندما يفقد كلّ خصوصيته[47]"،وعن طريق ولادة الحياة منرحم رماد الموت .وبذلك تحاول القبض على خيط دخان الهوية المسلوبة، تتصل بمؤسّسة إليس أيلند لمصاحبةالموتى إلى راحتهم الأخيرة، لمنح جسدها للمحرقة " كريماتوريوم " اللّذين رفضوا منحي رخصة الدّفن في القدس سهّلوا عليّ مهمّة هذه الخيارات، ليكن لقد قرّرت أن أمنح جسدي للمحرقة لأرتاح نهائيا من شطط ثقيل لم أعد قادرة على تحمّله.... ،أكبر محرقة يعيشها المرء هي أن تسرق منه أرضه، ويرمى على حوافّ المبهم، النّاس لايدرون أنّنا لا نعود إلى أرضنا الأولى لنموت فيها فقط ولكن لنعيش جزءا جميلا من العمر ونشمّ تربتها ورائحة شرفاتها المعلّقة في الهواء.... لا نعود إلى تربتنا الأولى لنؤبّن أنفسنا ونبحث عمّن يدفننا، ولكن لفتح العيون على كلّ تلك اللّحظات الّتي أخطأ البصر المتعب.... رؤيتها في المرّة الأولى....أشتهي فقط أن يبعثروا رمادي على مياه نهر الأردن، ربّما وجد طريقه نحو جذور هذه الأرض وفي أحياء القدس العريقة التي جنت طفولتي وعلى قبر أمّي وأخي وأخوالي ويوسف .... ومقام جدّي العظيم سيدي بومدين المغيث[48]."

ربما المحرقة تكتب عمرا جديدا للأموات؟ ولعلّ نثر بقايا الأموات في تربتهم الأولى يكتب لهم الحياة على هذه الأرض من جديد، فنجد مي تستند إلى أسطورة الجمع بين عوالم الأحياء والأموات، بجعل الرّماد يتغذّى على ماء وتربة الأرض الأم ما يسمح بالتقاء الأموات بالأموات ثانية والاقتراب من الأحياء أيضا،أي أنّ زرع رماد الرّوح يختصر المسافة وكأنّ مي على يقين أنّ الجسد هو سبب هذا السّلب الهووي فتحرّر روحها معتمدة طقوس الموت البديلة للتّخلص من الجسد الّذي كان عائقا سبّب منعها من الدّخول إلى القدس، لقد رفضت إسرائيل الدّفن الأرضي التّقليدي لخطره الرّمزي لاحقا، إلّا أنّ مي تعتمد رمزا آخر، تسهّل من خلاله على يوبا نقلها إلى موطنها وهذا نوع من الإصرار الهووي، ورفض للهويّة البديلة، والسّعي لتغيير الواقع المؤلم، حتّى الوصية الّتي تركتها مي لابنها كي ينفّذها كما أوصت دليل قاطع على الرّفض وعلى استمرار المقاومة الفلسطينية لاستعادة الهوية، سواء تعلّق الأمر بالأموات وزرع رماد أرواحهم على أمل الرّجوع يوما ما فالفلسطيني ولو رمادا لن يتخل عن تاريخه وهويته ووطنه أو تعلّق الأمر بالأحياء وتنفيذهم للوصية المتمثّلة في الإصرار على استرجاع المسلوب، كما فعل يوبا.

مي خلقت جيلا جديدا يحمل على عاتقه مسؤولية استرجاع الأرض والهوية المسلوبة، يقول يوبا وهو على متن الطائرة متجها إلى نيويورك بعد تحقيق وصية أمّه محاولا إتمام السّوناتا المستعصية " :تنتابني أحيانا رغبة ملحّة لتدمير كلّ ما بنَيتِه لأنّ به فجوات كثيرة عليّ أن أملأها كلّ صباح عندما أفتح عينيّ.... في ماذا كان يمكن أني فكّر طفل مثلي من أب من أصل ألماني ارتبط بأمّه الإيطالية أكثر من ارتباطه بوالده، انتصر لتاريخ العرب ولثقافتهم وأحجارهم، وأمّ ظلّت عربية على الرّغم من غوايات نيويورك الجميلة؟ لو دخل لعبة مثل هذه كيف سيتمكّن من جمع شتاته؟ كنت أظنّ أنّ الإنسان يمكنه أن يكون ملكا للأرض كلّها وأنّ عليه أن لا يتعلّق بالجذور كثيرا كما علّمتني. قلتِ إنّ الجذور تجمِّد الإنسان في مكانه لدرجة التّعفّن، ولكنّي اليوم أشعر كأنّ هناك حلقة مفقودة على الأقل، ومن الصّعب عليّ رتقها[49] " . هذا هو مفصل السّوناتا الّتي تجسّد أحلام مي وهي تفتّش في جرحها عن لون لمدينتها المسروقة. الزّرقة النّيلية . أنتم لاتعرفون القدس جيّدا..... عندما انسحبت مبكّرا، لم يتوقّف الزّمن ولكنّها تركت السّوناتا معلّقة بين أصابعي، وكأنّ كلّ الرّهانات كانت مرتبطة بنبض قلبها ووقع حركات أناملها وهي تتحرّك

على بياض اللّوحة، يتألّم يوبا، يتذكّر جيّدا أنّ الموت عندما عثر على مخبأ مي لم يمهلها ثانية واحدة. ظلّت تداريه داخل الألوان وتتخفّى وراء الأشكال الّتي كانت تبدعها"[50]، يظهر هذا المقطع من الرّواية إصرار يوبا على تحقيق الهوية المسلوبة بواسطة السّوناتا، فلا وجود لأكذوبة الوطن البديل فالمنفى معاناة دائمة، يفتح الجراحات القديمة، ولربّما يكتب لهم انتصار هوية الأنا مقابل الآخر؟ أو تبقى الهوية مجرّد حلم وذكرى تاريخية؟ يقول يوبا: "كنت أبعثر رماد أمي المعجون بنوّار البنفسج البري، كمن يزرع حقلا ميّتا بسماد الرّوح من حيّ المغاربة الذي أصبح امتدادا للحيّ اليهودي حتّى مقام سيدي بومدين المغيث. أوقفني عسكري إسرائيلي وسيم مدجّج بالأسلحة عند حائط البرُاق وقال لي: ماذا تفعل: قلت: أخطّ طريق أمّي حتّى حائط البُراق ومقام جدّها الأوّل. ابتسم. لا بدّ أن يكون قد ظنّني مجنونا، ثم قال: أنت في مواجهة حائط المبكى ولا يوجد في عمقه،كما ترى أيّ مقام"[51] وكأنّ اليهودي يشير إلى أنّ اليهود يرون الهوية الفلسطينية مجرّد حلم في نفوس الفلسطينيين وذكرى تاريخية.

العودة للوطن حلم وأمنية مي الّتي تبدي رغبتها في أن تدفن في القدس، غير أنّ طلبها يلقى الرّفض من سلطات الاحتلال الإسرائيلي، لأنّ القبر يحمل دلالة رمزية تتحوّل إلى خطر لاحقا، "ماا لّذي يخيف الناس من أن تدفن في أرضك؟ وهل صارت جثثنا مخيفة إلى هذا الحد"، أيضا يقول بابا حسن: "لقد رفضت كلّ طلبات الدّفن في القدس، تخيّلي؟ هل الأموات خطرون إلى هذا الحد[52] فتختار مي رمزا آخر لمقاومة طمس الهوية، وهو الرّماد الذي سيتغذّى من تراب الأرض ومائها ماذا تفعل؟ قلت: أخطّ طريق أمّي حتّى حائط البراق ومقام جدّها الأوّل. ابتسم. لابدّ أني كون قد ظنّني مجنونا.....وصلت مقام جدّي الذي لم يعد له اليوم أيّ أثر، وقرأت فاتحة الغياب عليه كما سلّمته إلي أمّي، وهي تلحّ على وقوفي باستقامة عندما أواجه جدّي الأندلسي:.....ما يزال في الروح يا جدي، شيء اسمه الأرض الأولى. عدت إليك لأنّي وقعت بين هلاكين، لا استطعت العودة نحوك وتنفّس تربتك والموت في حضنك، ولا تمكّنت من نسيانك والالتفات نحو مقابر الأراضي الّتي احتضنتني"[53] تبحث مي عن أيّ سبيل يوصلها للوطن وبعد أن منعت من الإسرائيليين، تختار مي " طريقة عالية في صناعة الموت، ومدهشة.... أفضّل أن أتحول إلى رماد لأسهّل نقلي إلى أرضي البعيدة الّتي لم أصلها وأنا حيّة"[54] تحاول مي أن تتكثّف رمادا

وتكتب لنفسها الحياة من جديد يقول يوبا وهو ينفّذ وصيةأ مه": قرأتها بصوت عال كما وعدتها: يانهر الأردن، ياصرخة الأنبياء المكتومة الباحثين عن مأوى ... لقد جئتك بألمي وذاكرتي متحّدية كلّ الفواصل والحدود، فخفّف من وطأة الحرائق الّتي تأكلني وتأكل كلّ من اشتهى هذه الأرض فأحبّها حتّى أحرقته كما تحرق الفراشات النّبيلة. يا نهر الأردن كن سخيّا فقط كما تعودت عندما يعبرك الطّيبون الّذين لا رفيق لهم إلّا خيباتهم ومنافيهم، وأفراحم المسروقة[55] ".

5.خاتمة

تبقى الهوية الفلسطينية حلم كلّ فلسطيني عاش حرائق الذّات في المنفى ومجرّد ذكرى تاريخية، تقول الخالة مامي دنيا لمي: "أرأيت المفتاح الخشن المعلّق عند مدخل البيت؟ هل ستعتقدين أنّه سيفتح شيئا الإحالات:

يوما ما لا أعتقد. الأحياء تسرق الواحد بعد الآخر، بعد سنوات قليلة لن يصبح لهذا المفتاح أيّ معنى باستثناء التّذكّر والتّألّم[56]." واقع الهوية الفلسطينية اليوم. لن يصبح للمفتاح مدينة، فالمدينة منهوكة. وما هي إلّا مستوطنات للهود، وتبقى المفاتيح معلّقة في فراغ لا أبواب تفتح.

*** *** ***

6. الهوامش:

[1] سوناتا لأشباح القدس، واسيني الأعرج, الطّبعة الأولى، عام 2009، دار الآداب للنّشر و التّوزيع (بيروت – لبنان). ص:304.

[2] المرجع السابق، ص41.

[3] المرجع نفسه، ص14.

[4] المرجع نفسه، ص226/225.

[5] سعد البازغي، شرفات للرّؤية – العولمة و الهوية والتّفاعل الثّقافي –,المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء / بيروت، ط1/ 2005، ص41-42).

[6] المرجع نفسه، ص51.

[7] المرجع نفسه، ص275.

[8] المرجع نفسه، ص277.

[9]المرجع نفسه، ص188.

[10]المرجع نفسه، ص39.

[11] المرجع نفس، ص393.

[12]المرجع نفسه، ص: 471.

[13]المرجع نفسه، ص 391

[14]المرجع نفسه، ص277.

[15]المرجع نفسه، ص212..

[16]المرجع نفسه، ص386.

[17]المرجع نفسه، ص131.

[18]المرجع نفسه، ص 180.

[19]المرجع نفسه، ص29.

[20]المرجع نفسه، ص183.

[21]المرجع نفسه، ص471.

[22]زغود محمد, أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، الأكاديمية للدّراسات الاجتماعية والإنسانية العدد4/ 2010.

[23] المرجع نفسه، ص304.

[24] المرجع نفسه، ص138.

[25] المرجع نفسه، صفحة الغلاف.

[26] جميل الحمداوي، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، مج25 ع 23يناير مارس 1997، ص 90.

[27] دليلة مرسي وآخرون، مدخل إلى التّحليل البنيوي للنّصوص، دار الحداثة، بيروت، 1985، ص44.

[28] isaacchiva ; (le patrimoine et ethnologique : l'exemple de la France) EncyclopoediUniversalis ;vol 24(symposium)1990.

[29] المرجع نفسه، ص188.

[30] المرجع نفسه، ص441.

[31] المرجع نفسه، ص 163.

[32] المرجع نفسه، ص282.

[33] تزفيتان تودوروف، ترجمة / نرمين العمري،الأمل و الذّاكرة، ط1، مكتبة العبيكان (الرياض)، 2006، ص242.

[34] أليكس ميكشيللي، تر: علي وظيفة، الهوية، دار الوسيم للخدمات والطباعة، دمشق، سوريا، ط1، &993، ص25.ص: 29

[35] المرجع نفسه، ص190.

[36] المرجع نفسه، ص138.

[37] المرجع نفسه، ص188/187.

[38] المرجع نفسه، ص471.

[39] المرجع نفسه، ص148.

[40] رمزي منير بعلبكي وآخرون، اللّغة والهوية في الوطن العرب إشكالية تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدّوحة، قطر، ط1، 2013 ص 52 .

[41] المرجع نفسه، ص28.

[42] المرجع نفسه، ص29.

[43] المرجع نفسه، ص337.

[44] المرجع نفسه، ص11.

[45] المرجع نفسه، ص143.

[46] المرجع نفسه، ص109.

[47] المرجع نفسه، ص91/90.

[48] المرجع نفسه، ص90.

[49] إدوارد سعيد " تر: صبحي حديدي"، الهويات تعدّدية و المنفى حقل كريم، مجلة الكرمل، ع 72 و73والاتحاد العام للكتاب الصحافيين الفلسطنيين، رام الله، فلسطين، صيف وخريف 2002، ص 258.

[50] المرجع نفسه، ص 138/137.

[51] المرجع نفسه، ص138/137.

[52] المرجع نفسه، ص33.

[53] المرجع نفسه، ص11.

[54] المرجع نفسه، ص37.

[55] المرجع نفسه، ص11.

[56] المرجع نفسه، ص161.